أ.د. علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية

دراسات ومقالات

دور الإيمان في تحقيق السلام المجتمعي

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد..

فإن أساس المجتمع هو العلاقة بين الرجل والمرأة، ومنهما تتكون الأسرة ويحدث التناسل والتكاثر، فتترتب العلاقات بين البشر؛ من أبوة وبنوّة وأخوّة وزوجيّة، ثم من جيرة وزمالة، ثم من عصبية المواطنة الحميدة، ثم من علاقة الشعوب بعضها ببعض.

وهناك عدة آيات ترسم الإطار الكلي والرؤية الشاملة لذلك، منها:

ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[1].

ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

ـ ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

وبنى الله ذلك كله على الحرية، مع بيان عاقبة الانحراف:

ـ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا﴾(٤).

وعلى المساواة:

ـ ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ﴾(٥).

ـ ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(٦).

وعلى العلم:

ـ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(٧).

ـ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٨).

وعلى التقوى:

ـ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٩).

وعلى التعاون:

ـ ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١٠).

وأثّرت هذه الرؤية الكلية على مفهوم الأمن والسلام المجتمعي.

فعلاقة الأمن بالإيمان، والسلام بالإسلام، علاقة وثيقة تبدأ حتى من اتحاد الجذر اللغوي، وهو ما أشار إليه ربنا سبحانه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ

إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١١]؛ وصرح به النبي المصطفى (ص) في الحديث الذي رواه عنه جماعة من الصحابة من طرق كثيرة بألفاظ مختلفة، منهم في حجة الوداع وحدها: واثلة بن الأسقع وفضالة بن عبيد وأبو مالك الأشعري، أنه (ص) قال: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنهُ النّاسُ على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم النّاس من لسانه ويده» أخرجه بهذا اللفظ ابن المبارك في الزهد، والإمام أحمد في المسند، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعب الإيمان، والبغوي في شرح السنة، عن فضالة بن عبيد الأنصاري (رض).

ويعدُّ الإيمان أعظم طريق لإقرار السلام الاجتماعي؛ فإن الإيمان عقد قلبي، ومن المسلّم به حتى في علم الاجتماع أن الممارسات البشرية والعلاقات الاجتماعية المنبثقة عن الاعتقادات أكبر فاعلية وتأثيراً وأقدر على الدوام والاستمرار من تلك التي ليست كذلك، حتى وصل الأمر بفلاسفة الإلحاد إلى أن يعدوا المعتقدات ضرورة اجتماعية، كما في نظرية سوق المعتقدات الدينية وفق المنفعة والتي يعبر عنها المفكر الإنجليزي جون جيرمي بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢م) في كتابه «أصول الشرائع» ص ٣٧.

والأمن والسلام في الإسلام مبدؤهما من الداخل ـ داخل الإنسان ـ لا من خارجه؛ فمتى ما كان الإنسان هادئ البال مستقر المشاعر مطمئن الفؤاد كان آمنا، وإن كانت الأمور تموج من حوله والأحوال تضطرب قريبا منه. بل الأكثر من ذلك أنه يُفيض على من حوله الأمن والسلام والطمأنينة بقدر ما يعتمل في نفسه من سكون وأمان واطمئنان.

والأمن يطَّرد مع الإيمان وجودا وعدما وزيادة ونقصانا، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١٢]؛ فالإيمان بالله تعالى هو الذي يحقق الأمن الداخلي، والأمنُ الداخلي ينعكس على أمن الشخص الخارجي، وبالتالي على أمن المجتمع الخارجي.

والإيمان يجعل الإنسان يبحث عن مراضي الله تعالى ليأتي بها، وعن مساخطه

لينتهي عنها، ولا يأمن على نفسه ما دام بعيدا عن الله تعالى قريبا من الشيطان، والقرآن الكريم ينعى على أهل الفجور أنهم على العكس من ذلك آمنون من بأس الله تعالى راكنين إلى الشيطان ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١٣).

والأمن في الإسلام ركن ركين يشكّل المحور الأساس في مقاصد الشرع؛ فإن المقاصد الشرعية التي هي حفظ النفس والعقل والدين والعرض والمال تتغيّا كلها توفير الأمن والأمان للمكلّف حتى يستطيع ان يقوم بما كلّفه الله تعالى به من عبادة وعمارة وتزكية على وجه يحقق مراد الله تعالى من خلقه، ومن هنا صحّ المدخل الأصولي الذي يقدم النفس والعقل على الدين؛ ليس لأن هذين خير من الدين ـ كما يظن بعض من لم يتفطن من الباحثين لهذا المدخل ـ بل لأن الحفاظ عليهما هو أهم أركان الاجتماع البشري من جهة، فلا يمكن أن يحقق الدين مراده وغايته ويبسط ظلاله الوارفة على المجتمع إلا بتأمين النفس ثم العقل والحفاظ عليهما، ومن جهة أخرى فإن الشرع جعل فقدان بعض هذه المقاصد ـ كالعقل ـ مانعاً من موانع التكليف، وجعل فقدان بعضها الآخر بل مجرد الخوف من فقدانها عذراً للمكلف في ترك بعض الأحكام الشرعية المتعارضة معها.

والدين حينما يدعونا إلى الإيمان فإنه يركز على الإيمان بالمطلق والقيم الفاضلة وموازين العدالة والحق التي لا تتبدل بتبدُّل الأعراف أو المصالح أو أنماط الحضارة المختلفة، ويعبر عن ذلك علماء المسلمين في بدء كلامهم في علم التوحيد بقوله: «حقائق الأشياء ثابتة، والإيمان بها متحقق»، وهذا النمط من الإيمان يوجد الشخصية التي تجمع بين الواقعية والصدق، بين المرونة والشفافية، وبين الإيمان بالحق، والسلام مع الخلق.

ومن هنا تتجلى لنا أهمية الإيمان بالغيب في حياة الناس، ونفهم حينئذ الحكمة في

أن جعل الله تعالى هذه الصفة هي أول وصف للمتقين في كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١٤).

ومن النصوص القرآنية الصريحة في الربط بين الإيمان والسلام الاجتماعي قوله تعالى: ﴿ياأَيُّهَا الَّذين آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١٥)، على تفسير السِّلم بالسلام، وهو الموافق لظاهر الآية ـ فقد أمر الله سبحانه وتعالى من تحقق فيهم وصف الإيمان بالدخول في كل مظاهر السلام (بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى)، وجعل الخروج عن شيء من ذلك نوعاً من الزلل الناتج عن اتباع خطوات الشيطان ووساوسه.

ويعرِّف النبي (ص) [الإيمان] في حديث جبريل عليه السلام المشهور يصفه بأنه: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وليكن هذا الحديث الشريف هو مدخلنا إلى الكلام على دور الإيمان في تحقيق السلام المجتمعي، ولنتكلم عن بعض متعلقات الإيمان فيه.

فأما الإيمان بالله تعالى: فهو كبرى اليقينيات الكونية، وهو الحقيقة المطلقة التي لا يمكن للإنسان أن يستغني عنها، والدين يعلمنا أن الله تعالى اسمه [السلام]، فيقول تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١٦). وأن هذا الاسم من صفات الجمال التي أمرنا أن نتخلق بها، مثل: الرحمن الرحيم السلام المؤمن الغفار الوهّاب، وصفات الجمال للتخلّق، كما أن صفات الجلال للتعلّق، ويعلمنا النبي (ص) كيف نحيا في نور هذا الإسلام الكريم لنجعل من العقيدة الإيمانية ممارسة عملية وتطبيقاً معيشاً:

فيجعل السلام هو تحية الإسلام، ويأمرنا بإفشاء السلام الذي يقتضيه هذا الإسم الإلهي، فيقول: «إنّ السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله في الأرض، فأفشوا

السلام بينكم» رواه البخاري في الأدب المفرد، ويدلنا على أن ذلك هو طريق التحابّ بين الناس ليكمل إيمانهم فيدخلوا الجنة، فيقول: «والّذي نفسي بيده لا تدخلون الجنَّة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أولا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم» رواه مسلم.

ويخبرنا أن الإنسان لا يستكمل الإيمان إلاّ ببذل السلام للعالم، والعالم: اسم لما سوى الله تعالى، وهذا يشير إلى أن المسلم سلام لكل المخلوقات، فروي عن عمّار بن ياسر(رض) أن النبي (ص) قال: «ثلاث من كنَّ فيه استكمل الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسك، وبذل السّلام للعالم» رواه البزاز والطبراني مرفوعاً، وعلقه البخاري موقوفاً، ومثله مما لا يُقال بالرأي فله حكم الرفع.

ويجعل ذلك خير الإسلام، فيقول لمن سأله: أي الإسلام خير: «تطعم الطّعام وتقرأ السّلام على من عرفت ومن لم تعرف» متفق عليه.

ويخبرنا أن إفشاء السلام سبب لحصول السلامة ونيلها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فيقول (ص): «أفشوا السّلام تسلموا» رواه البخاري في الأدب المفرد.

ويحرص الإسلام على الوئام والوفاق بين أفراد المجتمع، فيحرم الهجر والقطيعة بين الناس، ويجعل خير المتقاطعين هو الذي يبدأ منهما بالسلام، فيقول عليه الصلاة والسلام: «لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الّذي يبدأ بالسّلام». متفق عليه من حديث أبي أيوب الأنصاري(رض).

ويبين أن المبادر بالسلام هو أولى الناس بالله تعالى؛ لزيادة تحققه بهذا الاسم الكريم، فيقول (ص): «إنّ أولى الناس بالله من بدأهم بالسّلام» رواه أبو داود والترمذي وحسَّنه من حديث أبي أمامة (رض)، ويصف في المقابل من بخل بالسلام بأنه أبخل الناس لأنه بخل بما لا غرامة عليه فيه؛ فيقول: «أبخل النّاس من بخل بالسّلام» رواه الطبري.

ويصل الأمر إلى أن يجعله النبي (ص) أول مدخل من مداخل الدعوة إلى الله تعالى،

فيحدثنا عبدالله بن سلام (رض) ـ وكان من كبار أحبار اليهود قبل أن يسلم ـ ويقول: لمّا قدم النبي (ص) المدينة انجفل الناس قِبَلَه وقيل: قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله، فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: «يا أيُّها الناسُ! أفشوا السّلام، وأطعموا الطّعام، وصلوا الأرحام، وصلوا باللّيل والنّاس نيام، تدخلوا الجنَّة بسلام» [١٧].

ويجعل السلام هو الوجه الذي يستقبل المسلم به الناس عند فراغه من العبادة والمناجاة بينه وبين ربه حين يختم صلاته بالتسليم، بل ويجعله أيضا في الأذكار التي تلي الصلاة؛ حيث كان (ص) إذا فرغ من صلاته قال: «اللّهمّ أنت السّلام ومنك السّلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»[١٨].

ويرسم لنا الشرع الشريف منهج التعامل مع الآخر من خلال هذا الاسم الإلهي الكريم:

فيبين لنا الإسلام أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو (التعايش) و(السلام)، وليس القتال والصدام؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[١٩]، ويقول سبحانه: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢٠].

ويحثنا على الوفاء بذمة أهل الكتاب وتوفير الأمان لهم: «إنّ السّلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه في الأرض؛ تحيّةً لأهل ديننا، وأماناً لأهل ذمّتنا»[٢١]، وهذا كما يشمل عهد الذمة يشمل المواطنة أيضاً حيث لم يتقدموا إلى المسلمين بقتال أو إخراج من الديار.

ويأمر حبيبه (ص) بأن يصفح عن غيرالمؤمنين ويخاطبهم بالسلام حفاظاً على الاجتماع البشري، فيقول سبحانه: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ، فَاصْفَحْ

عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾[٢٢]، وينهى المسلمين عن أن ينجرّوا إلى الصدام مع المغرضين والمتعصبين من غيرهم أو حتى مقابلة السيئة بالسيئة، بل يأمر بالصفح والعفو؛ حفاظاً على السلام الاجتماعي والنظام العام، وفي ذلك يقول جل شأنه: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحقّ فاعفوا واصفحوا حتّى يأتي اللّه بأمره إنّ اللّه على كلّ شيء قدير﴾[٢٣].

ويفهم النبي (ص) هذا الأمر الإلهي ويطبقه أحسن تطبيق؛ فعن عائشة (رض)ا أن اليهود أتوا النبي (ص) فقالوا: السام عليك، قال: «وعليكم»، فقالت عائشة: السام عليكم، ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله (ص): «مهلا يا عائشة! عليكم بالرِّفق، وإيّاك والعنف أو الفحش»، قال: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: «ألم تسمعي ما قلتُ؟ رددت عليهم؛ فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيَّ» متفق عليه واللفظ للبخاري.

ويجعل من صفات عباد الرحمن أنهم يقابلون بهذا الاسم من يجهل عليهم، فيقول تعالى: ﴿ وعباد الرّحمن الّذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا﴾[٢٤]، ويقول جل شأنه: ﴿ وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[٢٥].

وينهانا القرآن الكريم عن حرمان الأمان لمن ألقى إلينا السلام، فيقول عز وجل: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل اللّه فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدّنيا فعند اللّه مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ اللّه عليكم فتبيّنوا إنّ اللّه كان بما تعملون خبيراً﴾ [٢٦]، وذلك على قراءة اسم المفعول من (مؤمناً)، وهي قراءة من القراءات العشر المتواترة قرأ بها عيسى بن وردان عن أبي جعفر المدني.

والمؤمن لا يتعامل بمنهج السلام مع الإنسان فقط بل يتعداه إلى التعامل به مع

الأكوان؛ لأنه يعلم أنها تسبح الله تعالى وتسجد له سبحانه، مصداقاً لقوله عزوجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾(٢٧)، وقوله سبحانه: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(٢٨).

والنبي (ص) يُعلِّمنا أن الكائنات تحبنا لأننا نسبح الله تعالى كما تسبحه هي؛ فيقول ـ مثلاً ـ عليه الصلاة والسلام: «أحد جبل يحبُّنا ونحبُّه» متفق عليه، ويخبر أن أبواب السماء التي يصعد منها عمل المؤمن تبكي عليه إذا مات، رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك (رض)، والإيمان بهذه الغيبيات كلها يدفع الإنسان إلى التعامل مع الكائنات كلها برفق ورحمة وتؤدة وجمال.

هذا بالإضافة إلى أوامره الشريفة (ص) بالرفق بالحيوانات ورحمتها ونهيه عن إرهاقها أو تحميلها فوق طاقتها أو تعذيبها أو المثلة بها، وفهم المسلمون هذا المعاني العميقة وأحسنوا تطبيق هذه الآداب النبوية الرفيعة؛ حتى وصلوا إلى مستوى من التعامل مع الحيوانات لم تعرف له حضارات الدنيا مثيلاً في توازنه وانضباطه؛ حيث وازنوا بين الرفق والرحمة بها من جهة وبين عدم تفضيلها على الإنسان الذي جعله الله سيداً في هذا الكون وسخرها من أجله من جهة أخرى؛ فعملوا أوقافاً لرعاية الحيوانات والرحمة بها، وتعاملوا مع المؤذي منها بسلام؛ حيث خصصوا لها محميَّات تجمع فيها؛ بطريقة ترحمها وتدفع ضررها في نفس الوقت، وحفاظاً في الوقت ذاته على التوازن البيئي الذي قد يصاب بنوع من الاختلال عند الإسراف في قتلها، وهذا السلام البيئي مظهر من مظاهر السلام التي عاش بها المسلمون مع الأكوان.

فمن الأوقاف التي أقامها المسلمون في هذا الصدد: وقف على مساقي الكلاب، ووقف الكلاب الضالة: وهو وقف في عدة جهات؛ ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب؛ استنقاذاً لها من عذاب الجوع حتى تستريح بالموت أو الاقتناء، ووقف لإطعام الخيل العاجزة عن العمل، وكان المرج الأخضر في دمشق وقفا على

الحيوانات المسنّة؛ تأكل حتى تموت دون أن يضطر أصحابها لقتلها تخلّصا من نفقاتها، وكان هناك وقف على تمريض القطط والكلاب والحيوانات المريضة ورعايتها حال هرمها، ووقف على صوامع الغلال لملئها بالحب الذي يأكل منه طير السماء ـ كما كان الحال في تكية محمد بك أبو الدهب بجوار الجامع الأزهر الشريف المعمور بالعلم وذكر الله تعالى – .

وأما الإيمان بالملائكة: فقد أمرنا الله تعالى به في كتابه الكريم، وبين أن الإيمان بهم من صفات الرسول والمؤمنين، فقال عزوجل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٢٩] ، ويصف من عاداهم بالكفر ويجعل ذلك عداوة له سبحانه، فيقول: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[٣٠].

والملائكة هم جند الله تعالى الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والاشتقاق اللغوي الأكبر لهذا الاسم يدل على التناهي في القوة والتأثير ـ وذلك بتقليب كافّة جذوره (ملك، لكم، كمل، كلم) ـ ومع ذلك فقد أمرهم الله تعالى بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام، فأطاعوا وعصى إبليس، وفي هذا إشارة إلى أنّ احترام الآدمية صفة ملائكية يجب على المؤمن أن يتحلى بها، بينما كان احتقار البشر والتكبر عليهم من شأن الشيطان ومَن اتّبعه، والإنسان بنيان الرب؛ ملعون من هدمه.

وآيات القرآن تشير إلى أنّ تنزُّل الملائكة مرتبط بالسلام والبشرى والرحمة، ويكفينا من ذلك قولُه تعالى عن نزول الملائكة في ليلة القدر: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[٣١].

كما يخبرنا الشرع الشريف أن الملائكة تردُّ عن المسلم ما دام لا يدفع السيئة بالسيئة، وتدافع عنه وتؤيِّده، وفي هذا حماية للمجتمع من البذاءة وسوء القول، وقطع لدابر التناوش والتنابز بالألفاظ؛ وما يزرعه ذلك من الإحن والبغضاء بين أفراد

الجماعة الواحدة، وهذا مدخل مهم من مداخل السلام الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

فعن أبي هريرة (رض) أن رجلا شتم أبا بكر (رض) والنبي (ص) جالس، فجعل النبي (ص) يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي (ص) وقام، فلحقه أبو بكر (رض) فقال: يا رسول الله، كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددتُ عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنّه كان معك ملك يرد عنك، فلمّا رددت عليه بعض قوله وقع الشّيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان»، ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله عزوجل إلا اعزّ الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطيَّة يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عزوجلّ بها قلّة»(٣٢).

كما دلت النصوص على حب الملائكة للسلام والصلح بين الناس وكراهتهم للشقاق والتنازع والخلاف، وأنهم يسجلون المغفرة والتوبة من الله تعالى لعباده عند عرض الأعمال وفتح أبواب الجنة يومي الاثنين والخميس ويؤخِّرون المتخاصمين حتى يصطلحوا، فعن أبي هريرة (رض) أن رسول الله (ص) قال: «تفتح أبواب الجنَّة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا أنظروا هذين حتّى يصطلحا أنظروا هذين حتّى يصطلحا»(٣٣).

كما أن التنازع ولو بالقول يكون أحياناً سببًا في نفرتهم عن موضع النزاع، وحرمان أهله من الخير والبركة التي كانت ستنالهم، فعن عبادة بن الصامت (رض) قال: خرج النبي (ص) ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال (ص): «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيرا لكم، فالتمسوها في التّاسعة والسّابعة والخامسة»(٣٤)، وذلك على قول بعض الشّراح أنّ الضمير في (رفعت) يرجع الملائكة.

وتتكامل المنظومة الدنيوية بالسلام لمن عاشها بمنهج السلام الذي أراده الله تعالى؛

حيث تخاطبهم الملائكة به عند قبض أرواحهم؛ وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فيقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣٥]، ويخبر الله سبحانه وتعالى أن الملائكة تتلقاهم بالسلام أيضا عند دخولهم الجنة ويقول: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[٣٦]، بل وأنها تدخل عليهم من كل باب من أبواب الجنة بالسلام: ﴿وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٣٧]، ودارهم يومئذ الجنة التي سمّاها الله تعالى «دار السلام» كما قال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٣٨].

وأما الإيمان بالكتب السماوية: فهو جزء لا يتجزأ من منظومة الإيمان، وقد جاء الأمر بالإيمان كلها في الكتاب الكريم في مواضع كثيرة، فيأمر الله تعالى حبيبه المصطفى(ص) أن يصرح بإيمانه بكل ما أنزله الله تعالى من الكتب في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾[٣٩]. ويجعل ذلك من صفات عباده المتقين في قوله سبحانه: ﴿ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[٤٠]، ويجعل جحوده من أنواع الكفر به سبحانه، فقال عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾[٤١]، وينعى على أولئك الله تعالى فيقول: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ﴾[٤٢].

ويرسم القرآن لنا كيف يكون لنا الإيمان الصادق بالكتب السماوية عاملاً مهماً من عوامل الاستقرار والسلام الاجتماعي ومانعاً من الشقاق والفتن:

فيصف بالهدى من آمن بكل كتبه التي أنزلها على رسله، ويجعل التولي عن ذلك من أسباب الشقاق التي تؤثّر سلباً على السلام الاجتماعي، فيقول سبحانه: ﴿قُولُواْ آمَنَّا

بالله وماَ أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾(٤٣).

ويبين أن الكتاب المنزل نسيج واحد، ولحمة واحدة، وأنه لا يؤخذ أبعاضاً؛ يؤمن الناس منه بما يشتهون ويتركون مالا يهوون، وأن كثيراً من مظاهر الإفساد في الأرض والإرجاف فيها ناجم عن هذه النفسية صاحبة الهوى التي تؤمن بما لها وتكفر بما عليها، فيقول تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاَّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عمَّا تعملون﴾(٤٤).

ويؤكد على أن فهم الكتاب واتباعه يحتاج إلى الراسخين في العلم الذين لا يضربون محكمه بمتشابهه كما يفعل الزائغون الساعون لإثارة الفتنة والبلبلة في المجتمع، فيقول تعالى: ﴿هو الَّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأمَّا الَّذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاَّ الله والرَّاسخون في العلم يقولون آمنَّا به كلٌّ من عند ربنا وما يذَّكَّر إلاَّ أولوا الألباب﴾(٤٥).

ويبين الله سبحانه وتعالى أنه أنزل موازين العدالة الاجتماعية في كتبه السماوية بما يكفل للناس العيش في سلام وعدل إذا قاموا بها، فيقول: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النَّاس بالقسط﴾ (٤٦)، وأن ترك تطبيق مظاهر العدالة التي أنزلها في كتبه من أهم أسباب الظلم الاجتماعي، فيقول سبحانه عن

التوراة المنزل على سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٤٧).

كما يؤكد سبحانه على أن إقامة الحياة على منهاجه الذي أنزله في كتبه يحدث في الرخاء الاجتماعي والرغد المعيشي، فيقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(٤٨).

ومن خلال المساحة المشتركة من الإيمان بالكتب المنزلة يضع الإسلام قاعدة السلام الاجتماعي بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤٩).

والله تعالى كما أنزل الكتاب أنزل أيضاً الحكمة، فقال في حق سيدنا محمد (ص): ﴿وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾(٥٠). وقال في حق السيد المسيح (ع): ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ والتوراة والإنجيل ﴾(٥١)، وقال عن الأنبياء والرسل من آل أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليهم السلام: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٥٢).

والكتاب مطلق، والحكمة نسبية، أما الكتاب: فهو كلام الله الذي أوحى به إلى رسله الكرام عليهم السلام، وأما الحكمة: فهي التطبيق المعصوم الذي قام به الأنبياء والرسل لهذا الوحي المطلق بما ألهمهم الله تعالى وأوحى به إليهم من فهم هذا الكتاب؛ ليتعلم الناس كيف يفهموا مراد الله تعالى من كتبه؛ فيحققوه في خلقه، فينالوا بذلك السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾(٥٣)، وإنما كانت الحكمة نسبية لأنها متعلقة بالواقع، والواقع متغير والحوادث لا تتناهي.

وهذا ينقلنا بدوره إلى دور الإيمان بالأنبياء والرسل في تحقيق السلام الاجتماعي. فإنَّ استلهام مناهجهم في فهم نصوص الكتب المقدسة التي أنزلها الله تعالى عليهم هو السبيل لتحقيق السلام الاجتماعي والتمتع بجميل ثماره ونيل سعادة الدارين التي أرادها الله تعالى لخلقه، وبذلك أمر الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٥٤).

والإسلام يعلمنا أنّ دين الله تعالى نسق مفتوح، وأنّ مَن كفر بنبيّ من الأنبياء فقد كفر بهم جميعاً؛ لأن الكل من عند الله، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا، وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٥٥) ولذلك كان المصطفى (ص) كثيراً ما كان يصرح بأخوته للأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأنهم من مشكاة واحدة، فيقول: «أنا أولى النّاس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علاّت؛ وأمّهاتهم شتّى ودينهم واحد، فليس بيننا نبي» متفق عليه، ويقول لعدّاس عن سيدنا يونس عليه السلام: «ذاك أخي؛ كان نبيا وأنا نبيّ» رواه ابن إسحاق وموسى بن عقبة في السيرة، فيجب على الإنسان أن يؤمن بكل أنبياء الله ورسله، من عرفهم ومن لم يعرفهم، حتى قال العلماء في جواب من سئل عن شخص لم تعرف نبوته من عدمها: آمنت به إن كان نبيا، وذلك من أعظم عوامل السلام الاجتماعي بين أصحاب الديانات السماوية.

ولذلك المعنى من شمولية الإيمان بالأنبياء جميعاً أجاز الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية دون العكس؛ فإن المسلم يحترم نبيها ويؤمن به كما يؤمن بنبيه عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وعبر الفقهاء عن ذلك بقولهم: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وكان هذا الحكم الفقهي البسيط عاملا من أكبر عوامل الأمن والاندماج والتمازج بين

المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى وواقياً من الصدام بين أفراد المجتمعات التي حكمتها حضارة الإسلام وتجاوز فيها المسلم وغير المسلم في أسمى مظاهر الرقي الحضاري من التواؤم والانسجام والوفاق.

كما يقص القرآن علينا من قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم ما نهتدي به إلى كيفية التعامل مع أنفسنا ومع الآخرين؛ من صبر الأنبياء على تكذيب أقوامهم وحرصهم على هدايتهم وتقديمهم السلام الاجتماعي ومصلحة الأمن القومي على العنف والمواجهة، وأن الله تعالى هو الذي ينتصر لهم من المكذبين عندما يحاولون أذاهم أو إخراجهم من أوطانهم، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾(٥٦).

كما نرى تقديم الأمان على الإيمان ومراعاة السلام الاجتماعي على الخوف من تفريق بني إسرائيل في قول سيدنا هارون وهو يبين لأخيه سيدنا موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام سبب تركه الإنكار على من عبدوا العجل منهم وعدم أخذه على أيديهم: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾(٥٧).

وهذا معنى مهم يخطئ كثير من الناس فهمه، ويظنون أن الإسلام لا يبالي في دعوته باستقرار أحوال الناس وسير حياتهم ومعايشهم وسلامهم الاجتماعي ما داموا لم يدخلوا في الدين أو لم يلتزموا بالأوامر الإلهية، وهذا مخالف لمنهج الأنبياء والرسل عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

بل يصل الأمر إلى السلام مع الحيوانات أيضاً؛ لأنها تسبح الله تعالى بلسان حالها أو مقالها، فيروي الإمام مالك في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد الأنصاري: أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام لقي خنزيراً بالطّريق فقال له: «انفذ بسلام»، فقيل له: تقول هذا

لخنزير؟ فقال عيسى عليه السلام: «إنّي أخاف أن أعوّد لساني النُّطق بالسوء».

وتتجلى مكانة السلام الاجتماعي وأهمية دوره في المواقف العطرة من السيرة النبوية الشريفة لأعظم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ص) أوضح تجلٍّ، وفي تطبيقه للوحي الكريم الذي أنزله الله تعالى عليه، كيف لا وقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، فقال في حقه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٥٨).

والمتأمل في السيرة النبوية المطهرة يرى تطبيق ذلك واضحاً في تصرفات المصطفى(ص) من مثل امتناعه عليه الصلاة والسلام من قتال المشركين بمكة، ولمّا قال له العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري (رض) في بيعة العقبة الثانية: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا» قال له النبي (ص): «لم أؤمر بذلك» أخرجه الإمام أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان.

وكذلك تأسيسه لمعنى المواطنة وحرصه على السلام الاجتماعي من خلال معاهدته مع اليهود بالمدينة، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار، وذلك كله تشييداً للدولة الإسلامية الوليدة على أسس ثابتة من الاستقرار والأمن واستتباب النظام.

بل نراه (ص) يعمل على الحفاظ على استتباب الأمن حتى بين المشركين؛ فيختار عدم إهلاكهم لمّا خيّره ملك الجبال فيهم، ويأبى أن يدعو عليهم في أحد، ويغيثهم عندما أرسلوا إليه يستغيثون به من قطع ثمامة بن أثال (رض) الميرة عنهم.

وتتجلّى النفسية النبوية المبادرة إلى الوفاق والمحبة للسلام وترك الخلاف والحريصة على تأليف القلوب في المدينة المنورة في حبّه (ص) موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، كما في حديث ابن عباس (رض) في الصحيحين، وأنه صبر على كل ما صدر منهم من الجحود والتكذيب والمكائد؛ ممتثلاً في ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥٩)، حتى وقعوا في جريمة الخيانة العظمى للدولة الإسلامية، وأصبحوا حينئذ يمثلون خطراً يهدد السلام الاجتماعي والأمن القومي، فكان إجلاؤهم وعقابهم أمراً ضروريّا لا

مناص منه للحفاظ على أمن الدولة وسلامتها.

ونراه عليه الصلاة والسلام يوقع في صلح الحديبية المعاهدة مع المشركين ويقدم ذلك على القتال مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٦٠).

وعندما يمتن سبحانه بتصديق رؤيا حبيبه سيدنا محمد (ص) بفتح الله تعالى على عباده بدخول حرمه وأداء نسكه، قدَّم الامتنان بالأمان على العبادة، ولم يكتف بذلك حتى أعقبها بالامتنان بعدم خوفهم حينئذ حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾(٦١)، وهذا يبين موقع الأمن والسلام من الشريعة الإسلامية.

ويأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن لا يتعرَّضوا لِـمَن يحجُّ البيتَ حتى ولو كانوا من المشركين عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾(٦٢).

ومن جوانب السلام في حياته ودعوته (ص) أيضاً للسلام الوقائي للمجتمع وللدولة؛ أما الأول فيتمثل في شريعة القصاص والحدود التي شرعها الله تعالى لسلام المجتمع وحفظه من الظلم والجرائم والفتن وانتهاك الحقوق، وفي ذلك يقول عزوجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٦٣)، والتي لم يكن النبي(ص) يحابي فيها أحداً، بل كان ينعى على أولئك الذين كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، كما في الحديث المتفق عليه، وأما السلام الوقائي للدولة: فيظهر في قوة الردع التي هي العامل الأساس في تحصيل السلام العادل بين الدول، والتي أمر الله تعالى بتوفيرها وتحصيلها في قوله سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ﴾(٦٤)، وجوانب السلام الاجتماعي في حياة النبي ودعوته الشريفة (ص) بحر لا ساحل له، وهو يحتاج إلى دراسة علمية رصينة متكاملة واسعة لتجلية هذا الجانب العظيم من أخلاقه الكريمة العطرة (ص).

الهوامش:

١ - النساء/ ١.
٢ - الحجرات/ ١٣.
٣ - الممتحنة/ ٨.
٤ - الكهف/ ٢٩.
٥ - البقرة/ ٢٢٨.
٦ - النساء/٣٢.
٧ - طه/ ١١٤.
٨ - البقرة/ ١١١.
٩ - البقرة/ ٢.
١٠ - المائدة/ ٢.
١١ - الأنعام/ ٨٢.
١٢ - الأنعام/ ٨٢.
١٣ - الأعراف/ ٩٧ - ٩٩.
١٤ - البقرة/ ٢-٣.
١٥ - البقرة/ ٢٠٨ - ٢٠٩.
١٦ - الحشر/ ٢٣.
١٧ - رواه أصحاب السنن وصححه ابن حبان والحاكم.
١٨ - رواه مسلم وغيره.
١٩ - الأنفال/ ٦١.
٢٠ - الممتحنة/ ٨.
٢١ - رواه الطبراني وغيره.
٢٢ - الزخرف/ ٨٨ - ٨٩.
٢٣ - البقرة/ ١٠٩.
٢٤ - الفرقان/ ٦٣.
٢٥ - القصص/ ٥٥.
٢٦ - النساء/ ٩٤.
٢٧ -الإسراء/ ٤٤.
٢٨ - النحل/ ٤٩.
٢٩ - البقرة/ ٢٨٥.
٣٠ - البقرة/ ٩٨.
٣١ - القدر/ ٤ - ٥.

٣٢ - رواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه أبو داود بلفظه.
٣٣ - رواه مسلم.
٣٤ - رواه البخاري.
٣٥ - النحل/ ٣٢.
٣٦ - الزمر/ ٧٣.
٣٧ - الرعد/ ٢٤).
٣٨ - الأنعام/ ١٢٧.
٣٩ - الشورى/ ١٥.
٤٠ - البقرة/ ٤.
٤١ - النساء/ ١٣٦.
٤٢ - البقرة/ ٩١.
٤٣ - البقرة/ ١٣٦ - ١٣٧.
٤٤ - البقرة/ ٨٤ - ٨٥.
٤٥ - آل عمران/ ٧.
٤٦ - الحديد/ ٢٥.
٤٧ - المائدة/ ٤٥.
٤٨ - المائدة/ ٦٦.
٤٩ - العنكبوت/ ٤٦.
٥٠ - النساء/ ١١٣.
٥١ - المائدة/ ١١٠ .
٥٢ - النساء/ ٥٤.
٥٣ - البقرة/ ٢٦٩.
٥٤ - الأنعام/ ٩٠.
٥٥ - النساء/ ١٥٠ - ١٥٢.
٥٦ - ابراهيم/ ١٢ - ١٤.
٥٧ - طه/ ٩٢ - ٩٤ .
٥٨ - الأنبياء/ ١٠٧.
٥٩ - البقرة/ ١٠٩.
٦٠ - الأنفال/ ٦١.
٦١ - الفتح/ ٢٧.
٦٢ - المائدة/ ٢.
٦٣ - البقرة/ ١٧٩.
٦٤ - الأنفال/ ٦٠.